أحمد أمين

مؤرخ الحياة العقلية فى الإسلام

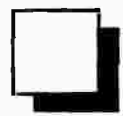

تبرز قيمة.. أحمد أمين كمفكر.. بين أفراد جيله من الرواد الأفذاذ الذين تصدوا لإعادة كتابة التاريخ الإسلامى.. فى أنه أوتى قدرة كبيرة على أن يحلل بعقله.. العقلية الإسلامية فى نشوئها وتطورها وارتقائها، بشكلٍ يجعلنا أمام صرح شامخ من الأفكار.

فالقارئ الذى يطالع أحمد أمين فى كتاباته الإسلامية المختلفة يتراءى له أسلوب «مفكر» بكل ما تعنى هذه الكلمة من معانٍ ودلالات، فهو إذا عنّت له فكرة، نلمح بين سطوره كيف يكون مقدار رسم هذه الفكرة فى ذهنه، وكيف يمكن تحويلها إلى خطة محكمة، ثم كيف يعدّ حساباته. وإذا انتهى من هذه الفكرة، فإنه يمد حواسه إلى فكرة جديدة تكملها، فنراه وقد حشد خاطره، واستعان بكل ما يعرف من علم وفكر.. وهكذا يصنع أحمد أمين فى بناء مجموع أفكاره، حتى نراه فى النهاية وقد أحاط موضوعه بكل ما يكفل له البقاء والرسوخ. فإذا نحن أمام بنيان شامخ من الأفكار يعلو ويرتفع ليكون حصناً للقرائح والعقول.

ولابد أن يكون أحمد أمين قد استعان من قبل بقواعد استخدام العقل فى الحكم والنظر فى الأشياء، أو بمعنى آخر أسلوب العقل حين يتصدى لدراسة موضوع من الموضوعات. فنراه يستخدم قواعد الحساب المنطقى من تحليل واستدلال، حتى يستخلص ما يريد أن يستخلص من النتائج.. وهو ما نعرّفه بالمنهج العلمى فى تناول الأشياء.

ولعلنا نلمح ظلالاً أو تأكيداً لما نقوله وندركه.. حول تناول أحمد أمين لمادة

«الحياة العقلية فى القرون الأولى للإسلام» من عبارة وردت فى تقدمته للأجزاء الثلاثة من كتابه «ضحى الإسلام»[1]. نجده يقول بالحرف الواحد: «لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة.. هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب، ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلى.

أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت، وكيف نمت، وما العوامل فى إيجادها، وما العناصر التى غذتها، وما الطوارئ التى طرأت عليها فعدّلتها أو صقلتها، أعياك ذلك، وبلغ منك فى استخراجه الجهد، لأن الفكرة أول أمرها لا مظهر لها تستدل به عليها، وقد تتكون من عناصر قد لا تخطر ببال، وتعمل فى تغييرها وتعديلها عوامل فى منتهى الغموض. والمذاهب الدينية قد يكون الباعث عليها غير ما ظهر من تعاليمها، قد يكون الباعث عليها سياسيًا، وهى فى مظهرها الخارجى مجردة من كل سياسة، وقد يكون الباعث لها إفساد الدين فتتشكل بشكل المتحمس للدين، وقد يكون المذهب صالحًا كل الصلاح، ولكن يحكيه أعداؤه فيشوهونه ويلغون فيه فيفسدونه، فيقف الباحث حائرًا ضالاً يتطلب بصيصًا أو أثرًا فى الطريق يسلكه من قبله فيحتذيه».

ويستطرد أحمد أمين فى إحصاء هذه الصعوبات التى يقابلها العقل عند دراسة الجوانب العقلية لأمة من الأمم، فيضيف إلى ما سبق: «وفوق هذا، فالأفكار متنوعة، والآراء متعددة، وقضايا كل عصر تخالف ما قبلها، ويراها الباحث فيظنها أول وهلة جديدة لم ترتبط بما قبلها برباط، ولم تتصل به أية صلة. فيعمل فكره فيما عسى أن يكون بينهما من قرابة أو نسب، وما قد يصل بينهما من سبب».

وهو ما أكده الدكتور طه حسين فى تقديمه للطبعة الأولى لكتاب «فجر الإسلام»[2] للأستاذ أحمد أمين، حيث قال: «أخذ زميلنا الأستاذ أحمد أمين نفسه بأن يحلل هذه الحياة العقلية العربية تحليلاً ليس أقل دقة واستقصاء من

تحليل صاحب الكيمياء فى معمله. نعم أخذ زميلنا نفسه بأن يرد هذه الحياة العقلية العربية ما استطاع إلى عناصرها المختلفة المكونة لها. وبأن يعرف إلى أى حد امتزجت هذه العناصر وتداخلت، وما مقادير هذه العناصر فى هذا المزاج العالم؟ وما مقدار العنصر الجاهلى؟ وما مقدار العنصر الفارسى؟ وما مقدار العنصر اليهودى؟ وما مقدار العنصر اليونانى؟ وما طبيعة هذه العناصر المختلفة التى كونت كل واحد منها؟ ثم بعد هذا كله: ما المزاج العربى الذى خرج من تفاعل هذه العناصر المختلفة فظهر فى الآداب العربية كما نراه فى شعر الشعراء، وخطب الخطباء، وعلوم العلماء، وأمثال الناس فى أحاديثهم العامة والخاصة؟».

وهذا التحليل الذى نشير إليه، وينبه إليه من قبل مؤرخ الحياة العقلية فى الإسلام الأستاذ أحمد أمين، ومقدمة الدكتور طه حسين.. ! اقتضى من الأستاذ أحمد أمين الرجوع إلى العوامل المستمدة من الإسلام، والعناصر الدخيلة على المسلمين، من الحضارات المجاورة كالفارسية والهندية، ومن الفلسفة اليونانية، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة واحدة هى الحضارة الإسلامية.

أساس الفكرة إذن عند أحمد أمين[٣] هى أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيرًا قويًا فى حياته، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته.. ذلك هو الإسلام الذى انتشر من أقصى الشرق فى الهند إلى أقصى الغرب فى الأندلس، فإذا شئنا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية لنتبين الأسس التى قامت عليها، والعوامل التى أدت إلى قيامها.

وأحمد أمين حيث تتيسر لديه المادة الإسلامية، فإنه يلتزم فى بحثها بثلاثة أبواب كان يفصّلها عندما يتناول هذه المادة وما وراءها من عقلية، وهذه الأبواب هى: الناحية الاجتماعية، ثم الناحية العلمية، وأخيرًا الناحية الدينية.

والقارئ لكل كتابات أحمد أمين الإسلامية لا يضنيه البحث فى التعرف على هذه الجوانب الثلاثة، فهى بادية واضحة فى كل جزء من أجزاء كتبه الإسلامية.

فإذا شئنا أن نعرف العقلية ـ على طريقة أحمد أمين ـ فلابد أن نعرف تاج هذه

العقلية وهو الدين، وأدواتها التى تبرز بها وتحقق وهى العلوم المختلفة، وحياتها وروحها وهى المراكز الاجتماعية التى نمت فيها وترعرعت.

وبمعنى آخر فإن العقلية الإسلامية فى نظر أحمد أمين أشبه ما تكون بالنهر الجارى المتدفق.. الحياة الاجتماعية روافده، والحركة العلمية مجراه، والدين مصبه وغايته، ونجد تطبيق هذا المنهج بوضوح فى «فجر الإسلام»، ومفصلة فى «ضحى الإسلام»، وأكثر تفصيلاً فى «ظهر الإسلام».

وعلى هذا النحو يكشف لنا أحمد أمين جوانب الحياة العقلية فى الإسلام(٤) من جميع أنحائها، ويفتح للباحث أبوابها على مصاريعها كى يغدو ويروح إلى كنوزها، التى كانت تتوارى عن الأنظار، والتى كانت تمتنع عليه امتناعا.

وبالطبع كل ذلك بفضل ملكات أحمد أمين العقلية التى ائتلفت منها شخصيته العلمية بخصالها الفذة، وأولى هذه الخصال تعمقه وفهمه للثقافة القديمة والحديثة، تعمقًا وفهمًا أتاح له كلما درس فكرة أتقنها فهمًا وفقهًا ونقدًا دقيقًا، وكأنه لا يريد أن يترك فيها بقية.

وخصلة ثانية هى خصلة التعميم والتنظيم فقد كانت للأستاذ أحمد أمين قدرة غريبة على استخلاص الأفكار الكلية التى تجمع الجزء إلى الجزء، وتضم العناصر عنصر إلى آخر، فإذا الكل يستوى قائمًا، وإذا الفكرة تتمثل واضحة. وهو لذلك دائم التحول من الجزئيات إلى الكليات، ولايزال يلائم بين ما يصل إليه من الكليات فى الموضوع الواحد حتى يتكون له فصل، ومايزال يلائم بين الفصول حتى يتكون له باب، وما يزال يلائم بين الأبواب حتى يتكون له كتاب. ومن ثمّ يبدو التناسق واضحًا فيما يؤلفه. إذ يحسن تصنيف الأفكار كما يحسن ترتيب الفصول والموضوعات ترتيبًا دقيقًا بحيث يعمها الاستواء والتناسق، فلا نشاز ولا اضطراب ولا طغيان لفصل على فصل ولا لفكرة على فكرة مع الوضوح التام، ومع ضرب من المنطق الحاد الذى يشفع بالقدرة على التعليل، وهى قدرة بدأها أحمد أمين حيث كان ضمن هيئة القضاء الشرعى، ونماها فى الجامعة على ضوء ثقافته الحديثة.

وخصلة ثالثة هى خصلة الحرية العقلية. فالأستاذ أحمد أمين يجهر بالحق فى صراحة، وبدون مواربة، وبدون أى تكلف.. يجهر به فى كل ما يمس الحياة دينًا ودنيا. ومن خير ما يصور ذلك عنده موقفه من المعتزلة. فقد كان ينصرهم دائمًا ويشيد بهم، ولكن ذلك لم يستر عنه معايبهم، فمضى يشرحها شرحًا واسعًا، شرح العالم المستبصر، بل شرح العالم الحر الفكر، الذى لا يحفل إلا بالحق وحده فهو يعيش له ويعيش به، ويعلنه إعلانًا صريحًا لا غموض فيه ولا خفاء. وكذلك كان شأنه مع الشيعة، فقد أجهد نفسه فى تصوير عقيدتهم بكتابه «فجر الإسلام» وراحوا يعلنون عليه حربًا شعواء. ولكن هذه الحرب لم تصرفه عن آرائه القديمة، حيث أصدر كتابه الجديد «ضحى الإسلام»، بل لقد مضى يثبتها ويكتب معها نقدًا جريئًا، إذ اعتقد أنه حينما يقول الحق لا يخشى فيه لومة لائم.

وثمة خصلة رابعة تتصل بهذه الخصلة، هى عدالته فى الحكم على الأشخاص والآراء عدالة ملؤها النزاهة، وهى عدالة اكتسبها نظريًا فى مدرسة القضاء الشرعى وفى أثناء درسه للأخلاق، وعمليًا حين اشتغل قاضيًا، وتولى الحكم فى القضايا الشخصية. ونحن لا نقرؤه فى «ضحى الإسلام» وفى غيره من مصنفاته، حتى نحس كأنما نصب بين يديه موازين عادلة لا تحيد يمينًا ولا شمالاً بتأثير هوى أو عصبية.. وهى موازين شديدة الحساسية، تزن كل رأى مهما دق وكل فكرة مهما صغرت. وهى لذلك أيضًا تتيح له سلامة الحكم وصواب النقد، فأحكامه ونقده جميعًا لا يشوبهما ضعف أو عوج أو نقض. بل هو دائمًا التحرى والدقة والاحتياط والإنصاف والاعتدال إلى أقصى حدود الاعتدال.

وخصلة خامسة فى الأستاذ أحمد أمين، يمكن أن تضم إلى الخصال السابقة، هى الطموح إلى تحقيق المثال الأعلى فى البحث والدراسة، وهى خصلة دفعته دفعًا إلى كفاح علمى عنيف استهله بتثقيف نفسه ثقافة عميقة بالمعرفة القديمة والحديثة والفقه وبمناهج القدماء والمحدثين جميعًا. ثم مضى ينفق أيامه فى دراسة الحياة العقلية الإسلامية، باذلاً كل ما يملك من قوة وجهد، متذرعًا بكل

ما يستطيع من صبر وجلد، محتملاً من ضروب المشقات ما تنوء به العصبة أولو القوة، إذ كان الطريق العلمى إلى تلك الحياة مليئًا بالعقبات والصعاب، فما زال يقهر كل عقبة ويذلل كل صعوبة حتى استقام له الطريق ممهدًا واضح المعالم.

والحق أن الكثيرين من نقاد أحمد أمين ومؤرخى فكره يرون فى كتاباته الإسلامية أسلوبًا جديدًا فى التاريخ الإسلامى. تعلّم عليه واستفاد منه أكثر الباحثين والدارسين، فقد أمدنا بفيض غزير ومنهج دقيق وعلم وفير، وتعدّ كتبه «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام» بأجزائه الثلاثة، و«ظهر الإسلام» بأجزائه الأربعة.. من أعظم المؤلفات العلمية المنهجية فى تناول الحياة العقلية وعرضها وبسطها فى أسلوب علمى دقيق سهل. ولا تعدو[٥] الحقيقة إذا أعددناها فى مقدمة المراجع الحديثة التى يحتاج إليها الباحثون فى هذا الميدان الواسع العريض. ويكفى أن نعود إلى ما كتبه الشيخ الإمام مصطفى عبد الرازق، والدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور برجشتراسر، والدكتور جفرى عن «فجر الإسلام» عقب ظهوره عام ١٩٢٨م. فندرك قيمة ما التزم به أحمد أمين فى دراسته ومنهجه، ومقدار ما اضطلع به من جهد جهيد، وما قدمه للدارس العربى، من مصادر للبحث ومراجع عربية وغير عربية بما يتفق مع ما حققته الأمة العربية من تطورات فى مجتمعها وثقافتها، وما كان يتطلع إليه جمهور المثقفين فى الجامعة المصرية التى قادت هذه النهضة وفتحت لها أوسع طريق.

وبهذه الروح العلمية التى أشاد بها الكثيرون.. كتب أحمد أمين كتبه فى الإسلام.. وهى «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» فى ثلاثة أجزاء، و«ظهر الإسلام» فى أربعة أجزاء و«يوم الإسلام»، و«الفتوة والصعلكة فى الإسلام»، و«هارون الرشيد»؛ لتصبح من المصادر الأساسية التى لا يستطيع أى باحث الاستغناء عنها.

والآن.. ماذا تتضمن هذه الكتب الإسلامية من أفكار أرادها صاحبها أحمد أمين؟

فى الإجابة عن هذا السؤال، لعلنا نرجع إلى عدد من المصادر[٦] حتى نقف لحظات عند كل ما كتبه أحمد أمين فى الإسلام.

«فجر الإسلام»: وفيه يؤرخ أحمد أمين للقرن الإسلامى الأول، وفيه تذليل لكل ما يعترض الباحث فى التاريخ الإسلامى من صعاب، كما يصور الجوانب المختلفة للحياة العقلية فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى، سواء الدينية أو العلمية أو الاجتماعية. وهو نفس الأسلوب الذى أخذ أحمد أمين به نفسه فى كتابة التاريخ الإسلامى.

ولكى يدرس أحمد أمين الحياة العقلية فى صدر الإسلام نراه يشير إلى ثلاثة جوانب أثرت على هذه الحياة العقلية. الأثر الأول: كان للفرس، وقد أوضحه أحمد أمين توضيحًا كبيرًا. . فبعد أن يقدم هذه الإمبراطورية ذات الحضارة التى استطاعت أن تقف أمام الإسكندر الأكبر، وكان لها ديانتها الخاصة، وتعرف قبل أن يدخلها الإسلام بالديانة الزرادشتية. بعد كل هذا يبين لنا أحمد أمين التأثير الدينى فى حياة العرب الجديدة، وكيف بدأ منعكسًا، فإذا الفارسيون أنفسهم قد اندمجوا فى صميم الحياة العربية، ولكنه انعكاس ظاهرى ظل مقصورًا على السياسة والحالة الاجتماعية. وأما اعتقادهم الدينى فقد بقى كامنًا فى نفوسهم، وقد حملوه إلى دنيا الإسلام فى ضمائرهم، ولم يتنازلوا عنه فى سرهم. ويذكر أحمد أمين أن هذا الشعور ظهر بصورة مقنّعة فى نزاعاتهم الشعوبية، إذ كانوا يجدون المسلمين قد أخذوا بلادهم عنوة، وأصبح عامل من عمال المسلمين يدير هذه البلاد، على أنهم ـ الفرس ـ حين ذابوا فى المجتمع العربى استطاعوا أن يلونوه ويؤثروا فيه.

كذلك يذكر أحمد أمين أن الفرق الشيعية التى لها تاريخها فى الإسلام، كانت معتقداتها فى الأصل فارسية. وللفرس غير هذا الأثر العقائدى على العرب أثر فى الأدب العربى. وساق أمثلة من الشعراء والأدباء من ذوى الأصول الفارسية، وقد قالوا الشعر، وشاركوا فى الأدب بعقول فارسية وألسنة عربية.

الأثر الثانى: بعد الفرس الذى يذكره أحمد أمين هو أثر الخوارج. . فهم أصحاب الفكرة الأولى فى نقد الخلافة، وقد خاض الخوارج من أجل آرائهم السياسية الحرة أشد المخاطر، حتى سالت على آرائهم دماؤهم. وقد ميزهم الاعتقاد الجازم والعبادة الخالصة وتقديس النبى الكريم، ولكنهم لم يتورعوا عن أن يسفكوا الدماء حتى ولو كانت دماء الصحابة إذا وجدوهم مخالفين لآرائهم.

وأثر الخوارج فى العقلية الإسلامية وجده أحمد أمين فى الجدل السياسى بتقديم خليفة على آخر، ورأى أن مرد ذلك هو يوم التحكيم، حين رفضوا الحكم، وقالوا لا حكم إلا لله، بعد أن رأوا فريقًا مخالفًا لهم، وهم أصحاب معاوية وعمرو بن العاص، وقد رفعوا المصاحف على رءوس الرماح رمزًا لتحكيم كتاب الله فى القتال. وقد وقعت إذ ذاك الخديعة الكبرى حين اقترح عمرو بن العاص تنحية على، وسعيه لتنصيب معاوية بن أبى سفيان خليفةً وأميرًا للمؤمنين. فنشب قتال من أجل ذلك بين العرب فى مستهل عهدهم بالإسلام، وكانت تلك هى الحرب الأهلية الأولى. وعاش بعدها الخوارج مطاردين حتى ضاعت فلولهم فى العصور العباسية.

والأثر الثالث: كما يرى أحمد أمين كان للمعتزلة. وهو حين يتكلم عنهم لا يبين الأسباب الأولى التى نشأ عليها تفكيرهم وإيثارهم للعقل المحض. وفى رأى أحمد أمين أنه لولا الخوارج لما كانت المعتزلة. فالخوارج كما عرفنا كان أسلوبهم الصراحة، وهم الذين قالوا لعلى بن أبى طالب: «أخطأت، ومن أخطأ من أئمة المسلمين وجب رجوعه إلى الصواب، وإذا لم يرجع وجب حربه وزجره، ولو آل الأمر إلى قتله»، وكل هذا يوضح عقليتهم حتى يمكن فهم المعتزلة بعد ذلك.

وأحمد أمين حين عرض لنمط تفكير المعتزلة فى كتابه هذا، وخاصةً فى الجدل حول القضاء والقدر، إنما أراد الكلام عن طبائع الفكر والاعتقاد عندهم. ومن حلقات المعتزلة خرجت أفكار الجبر والاختيار، ودارت عليها عقول أهل الكلام

سنين طوالا. ولم يستطع فريق أن يقنع الفريق الآخر أو ينتهى إلى نتيجة حاسمة، حتى يئست منهم الهيئة الاجتماعية فى ذلك الوقت.

ويرى أحمد أمين أن هذه الحلقات الخاصة والعامة التى كان يدور فيها الجدل الدينى والسياسى هى التى سحبت على العصور العباسية كلها قوة الفكر، والحجج وطبائع الجدل والكلام. وهذه هى الظواهر الفكرية التى جعلت للأمة العربية وجوداً فكريًا. فحركت المبادئ الأولى عن أمكنتها التى كانت لا تحيد عنها إلى مجال أوسع أو آفاق بعيدة، انبسط فيهما الفكر العربى، والرأى الإسلامى، واتخذا لهما حياة جديدة ذات صيغة خاصة دون أن يكونا فارسيًا أو غير ذلك.

وفى «ضحى الاسلام» يتناول أحمد أمين بحث العصر العباسى الأول، وهو عصر اتسم بالتقدم والحضارة، لذلك وضع أحمد أمين له عنواناً هو: «ضحى الإسلام». ولهذا العنوان دلالته فقد كان العصر الأموى وما قبله فى عهد الخلفاء الراشدين يعدّ فجرًا للإسلام، ثم أشرقت بعد ذلك شمس النهار الإسلامى فى الضحى، فتمثله فيما أحرزه العرب من تقدم وحضارة.

وأحمد أمين يقدم لنا مرحلة «ضحى الإسلام» فى ثلاثة أجزاء، يبحث الجزء الأول منها الحياتين الاجتماعية والثقافية. ولم يكد يبحث ظاهرة من ظواهر الحياة الأولى إلا جلاها كأروع ما تكون التجلية. وقد بدأ بسكان الدولة الإسلامية فتحدث عن أجناسهم واختلافهم فى الخصال والأهواء، وانصهارهم بعضهم فى بعض مما أتاح توليد عقل واسع. ومن ثمّ تحدث عن الامتزاج بين العرب والموالى دمًا وعقيدةً وفكرًا، وما نشب بينهما من صراع أدى فى بعض الجوانب إلى ظهور نزعة الشعوبية وما خلفته من آثار مختلفة فى الحياتين العقلية والأدبية. ودعا ذلك إلى أن يتحدث عن الرقيق وأثره فى الثقافة والشعر وفى الغناء. وما كان للجوارى فى هذا العصر العباسى من عمل واسع، وأخذ ينظر فى حياة الخلفاء العباسيين وفى حياة الناس. حتى إذا فرغ من تصوير الحياة الاجتماعية وظواهرها المختلفة المادية والمعنوية انتقل يصور الحياة الثقافية بكل جوانبها

الأجنبية والعربية كاشفًا عما أخذه العرب من الفرس والهند واليونان، وكيف أخذوه ترجمةً أو شفاهًا.

ثم نمضى مع أحمد أمين إلى الجزء الثانى، فيصف الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول مستهلاً حديثه بقوانين الرقى للعقل البشرى، ناقدًا لطبيعتها على العقل العربى. وللتحول إلى قوانين العلم وتطوره منتجًا لها فى العالم العربى، الذى انقسمت شجرته إلى فروع نقلية وأخرى عقلية، لكل منهما منهجه الخاص فى البحث والتأليف. وبينما تعتمد الأولى على الرواية وصحة السند، تعتمد الثانية على معقولية الحقائق وامتحانها. ويقف عند اتساع صناعة الورق وأثرها فى تدوين العلم.. وأثر الخلفاء العباسيين فى العلوم المتصلة بالسياسة، وشئون الدولة. وينتقل إلى معاهد العلم ومجالسه ودور الكتب ومناهج التعليم، ويصور كل ذلك تصويرًا دقيقًا، كما يصور مراكز الحياة العقلية فى الحجاز والعراق ومصر.

والجزء الثالث من الكتاب يخصصه أحمد أمين للفرق الإسلامية. وهو يستهله بالحديث عن نشأة علم الكلام وأسبابها، ويقف عند منهج القرآن ومنهج المتكلمين، ومنهج الفلاسفة فى الإلهيات وتقرير الحقائق وما بين المنهجين من خلافات. ويتحدث عن المعتزلة وعن تعاليمهم التى أقاموها على خمسة أسس وأصول هى: القول بالوعد والوعيد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ووضع الفاسق فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر، والقول بالتوحيد وما يتصل بذلك من تنزيه الذات العليا عن التجسيم، والإيمان بأن القرآن مخلوق، ثم القول بالعدل وما يتصل بذلك من وجوب العدل على ما يرضى الله، ومن أن الانسان حر الإرادة.

وأحمد أمين يهتم اهتمامًا خاصًا بأدب الشيعة والخوارج، ويراهما جديران بالتسجيل.

فأدب الشيعة هو أدبٌ حزين، فيه دموع وحسرات، وعليه أردية سود من طول الحداد على مصرع الحسين بن على (رضى الله عنهما). وقد كان لحركة

التشييع أثر بعيد فى إعطاء نواحى الأدب العربى حياة جديدة، فالخلاف السياسى والتشاحن المذهبى كان الادب يجذبهما ويسجل حركاتهما وسكناتهما.

أما أدب الخوارج فقد نظر إليه أحمد أمين نظرة منصفة، فقد رآه أدب القوة، وأدب الاستماتة فى طلب الحق ونشره، وأدب التضحية، وهو يرى تعبيرهم فى أدبهم أدب التعبير البدوى الذى لا يتفلسف ولا يشتق المعانى كما يفعل المعتزلة. ويرى هذا الأدب الخارجى أيضًا أدبًا غاضبًا، لكنه ليس كغضب أدب الشيعة.

وقد وازن أحمد أمين بين ما بقى من أدب الشيعة، وما أثر من أدب الخوارج. فوجد أن أدب الشيعة احتضنه سادتهم فى العصر العباسى ودونوه. وكان لهؤلاء السادة الصدارة فى البحث والدرس والتأليف، كالشريف المرتضى صاحب الأمالى المعروفة باسمه. ولذا حفظ أدبهم من الضياع، وجاءنا منه الكثير. أما أدب الخوارج فإنهم وإن كانوا قد عاشوا فيه لكن ما أثر عنهم كان قليلاً لأن الأمويين كانوا حربًا عليهم، والعباسيون لاحقوا فلولهم ونعتوهم وما وصل إلينا من أخبارهم إلا النزر اليسير الذى جمعه ورواه أبو العباس المبرد صاحب كتاب الكامل.

الكتاب الثالث من سلسلة مؤلفات أحمد أمين الإسلامية هو كتاب «ظهر الإسلام» الذى صدر فى أربعة أجزاء.

عنى فى الجزء الأول بناحيتين: الأولى: وصف الحياة الاجتماعية فى هذا العصر. فليس من الممكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التى نشأت فيها والعوامل التى ساعدت عليها، وطبيعة الناس الذين انتجوها، وغير ذلك.

والثانية: وصف مراكز الحياة العقلية ونوع الحركات العلمية والأدبية التى ظهرت فى كل إقليم وخصائصها وأشهر رجالها، وهو وصف موجز، أراد به أحمد أمين أن يكون نقطة ارتكاز، يتبعها لتفصيلها فيما بعد ذلك من أجزاء.

وفى الجزء الثانى من «ظهر الإسلام» يسلك أحمد أمين نمط «ضحى الإسلام»، حيث يبحث فى تاريخ العلوم والآداب والفنون فى القرن الرابع الهجرى.

والقارئ يلمس مدى الجهد الذى بذله فى تحقيق بعض المسائل العلمية والأدبية والفنية، وذلك بالرجوع إلى مصادرها الأولى. وقد يكون للمسألة الواحدة أكثر من أربعة مصادر كلٌ له رأيه الخاص. فمثلاً: يرى بعض المؤرخين أن إخوان الصفا من الشيعة، وبعضهم يروا أنهم ليسوا بشيعة، وهنا كان لابد على أحمد أمين من مراجعة هؤلاء وأولئك ليقف على موضوعات الكتابة أولاً، ومعرفة منحى المؤلفين: هل هم شيعة أم غير شيعة؟ حتى يستطيع استخلاص الرأى الصحيح.

ويخصص أحمد أمين الجزء الثالث من «ظهر الإسلام» للحياة العقلية فى الأندلس. ولم يكتف بتاريخها فى القرن الرابع الهجرى وحده بل رأى أن حضارتها وحياتها العقلية تكاد تكون واحدة، ففضّل أن ينهج منهجًا جديدًا مؤداه ألا يلتزم بالقرن الرابع الهجرى، بل يؤرخ حياة الأندلس العقلية متسلسلة من وقت خروجها منها، أى نحو ثمانية قرون حتى تكون كلها مربوطة برباط واحد، ومعروضة عرضًا واحدًا.

كان أمام أحمد أمين أسلوبان للتاريخ، فإما أن يؤرخ تأريخا أفقيًا، بمعنى أن يؤرخ العقلية فى كل عصر. ثم يتبع ذلك بالعصر الذى بعده، أو تأريخا رأسيًا، بمعنى أن يؤرخ كل علم من مبدأ ظهوره فى الأندلس وكيف تدرج. وقد فضّل الأسلوب الثانى، وهو أسلوب التأريخ الرأسى.

ويستمر أحمد أمين فى جزئه الثالث من أجزاء «ظهر الإسلام» بنفس الأسلوب الذى اتبعه فى بقية السلسلة الإسلامية، من حيث إنه يؤرخ للحياة العقلية.

ويؤرخ أحمد أمين فى الجزء الرابع للمذاهب الدينية وتطورها، فلم يضف جديداً عند القرن الرابع الهجرى، لأن العقائد والمذاهب ليست كالآداب والعلوم والفنون سريعة التغيير والتطور. وقد تكلم فى هذا الجزء عن المذاهب الرئيسية من معتزلة وأشاعرة وشيعة وسنة ومتصوفة.

وللمتصوفة أفرد بابًا خاصًا مع أنهم ليسوا فرقة إسلامية، لاشتهار أمورهم وقوة أثرهم فى العقيدة الإسلامية، وبخاصة بعد القرن الرابع الهجرى.

وأحمد أمين يعرض لنا فى هذا الجزء الأخير عرضًا عامًا للعقيدة الدينية فى شتى صورها عند المسلمين منذ ظهور الإسلام حتى العصور المتأخرة.

وتستوقفنا فى كتاب «ظهر الإسلام» ككل بعض الجوانب، مثل: حديث أحمد أمين عن المعتزلة وكيف كان لهم دور فى تاريخ الفكر الإسلامى، وطبيعة العقل الواعى الذى ظهر فى العرب وهم يناقشون أمور الدين والدنيا فى حرية وتحرر.. حتى أن أحمد أمين كان يرى أن نضج الفكر فى العصر العباسى الأول والثانى كان الفضل فيه للمعتزلة. وقد مثّل المعتزلة بالمدافعين عن حوزة الفكر الإسلامى أمام التيارات الجارفة التى جاءت من الفكر الآرى والسامى، فقد حمل الفرس منذ أن دخلوا فى الإسلام أفكارهم وذكريات اعتقادهم الدينى. وكذلك كان شأن الروم، كما كان العراق محاطًا بالثقافات المختلفة والديانات المتباينة. وكان السريان واليهود قد أيقظوا أذهانهم ناحية المسلمين، وحين دخل هؤلاء فى الدين الإسلامى، بدأت معتقداتهم القديمة ترفع الرءوس إزاء معتقداتهم الجديدة، فحدث الخلاف والشقاق فى الآراء والنزعات، ووقف فى وجه هذا التيار الطاحن كله جماعة المعتزلة يدافعون عن الإسلام ويصدون عنه البوادر الهدامة.

وفى كتاب «يوم الإسلام» يبين أحمد أمين أصول الإسلام، وما حدث له من أحداث أفادته أحيانًا وأضرته أحيانًا أخرى.

كذلك وضح لنا أحمد أمين كيف كان الإسلام يعامل غيره من أهل الأديان، وذلك أيام عزه وسطوته، وكيف يعامله غيره أيام ضعفه ومحنته.

أما لماذا اختار أحمد أمين «يوم الإسلام» عنوانًا فى أصول هذا؟ أنه يذكر أن ذلك لاشتماله على الإسلام فى أصوله وعوارضه، وذلك فى عصوره المختلفة إلى اليوم، وأهم غرض منه شيئان:

الأول: أن نتبين منه الإسلام فى جوهره وأصوله وكيف كان.

والثانى: أن كثيرًا من زعماء المسلمين أتعبوا أنفسهم فى بيان أسباب ضعف المسلمين. وهنا رأى أحمد أمين أن خير وسيلة لمعرفة أسباب هذا الضعف هو الرجوع إلى التاريخ.

و«يوم الإسلام» يحمل العديد من الأفكار والآراء التى إن دلت على شىء، فإنما تدل على ثقافة قائلها وها هو مثلاً.. يحدثنا عن معنى الجهاد، فيقول: «وشرع الإسلام الجهاد، والجهاد كلمة إسلامية تستعمل بمعنى الحرب، وهى مصدر جاهد يجاهد مجاهدة جاهدا، مأخوذة من الجهد. وهى الطاقة والمشقة».

وقد شرع الجهاد فى الإسلام فى ثلاثة مواضع:

الأول: إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان.

الثانى: إذا نزل الكفار ببلد تعين على أهله قتالهم ودفعهم.

الثالث: إذا استنفر الإيمان قومًا لزمهم النفير معه بدون ذكر الأدلة.

ذلك ما يمكن أن يجىء به الوعى والحفظ من ذهن المؤلف. وكان بمقدور أحمد أمين لو أطاعه النظر[٧] أن يرجع إلى أبواب الجهاد فى الصحيحين لدى مسلم والبخارى، فإنهما استنقذا بالأحاديث المرفوعة والسماع الثابت جملة كبيرة من آراء الرسول ﷺ، ومن أقوال الصحابة والتابعين، وكلهم قد شارك فى الجهاد مع رسول الله أو بعده، وجرى على سنته فى الحرب والدفاع.

كذلك قال أحمد أمين كلمة فى الحرب والسلام على نحو ما قالها فى الجهاد: «قد أثبتت التجارب أن الحرب سنة من سنن الاجتماع البشرى، وأثر من سنة تنازع البقاء، وتعارض المصالح والمنافع والأهواء، بل هى سنة من سنن بعض الحشرات التى تعيش عيشة التعاون والاجتماع كالنمل، فهو يغزو ويبيد ويسترق ويستخدم رفيقه فى خدمته وترفيه معيشته، ويدل التاريخ أيضًا على أن شعوب أوربا أشد البشر ضراوة وقوة فى الحرب.. فى أطوار حياتهم كلها من همجية ووثنية ونصرانية وصليبية ومادية. ومن علمائهم وفلاسفتهم من يرى منافع الحرب أكبر من مضارها، ولاتزال جميع دولهم تنفق على الاستعداد لها فوق ما تنفق على غيرها من مصالح الدولة والأمور مما ترهق شعوبها بالضرائب الكثيرة، فإذا لم تجد استدانت. وقد كان من تعاليم الإسلام منع جعل الحرب للإكراه على الدين والتمتع بالشهوات، ومنع استعمال القسوة فى الحروب كالتمثيل بجثث

الأعداء، ومنع قتل من لا يقاتل كالنساء والأطفال والعباد، ومنع التخريب والتدمير وما لا ضرورة له..».

ويعقب أحمد أمين بأقوال وأفكار راهنة حول الموضوع ومفاهيمه، ثم يخرج فجأة إلى كلام حول ما سخره الله للانسان من عون فى الحياة، بادئًا من الآية الكريمة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٨] ثم يمضى به الاستشهاد بالقرآن إلى هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[٩].

وهكذا نجد اختلافا واضحًا بين أحمد أمين فى كتبه الأولى: «فجر الإسلام»، و«ضحى الإسلام»، و«ظهر الإسلام»، وكتابه هذا «يوم الإسلام» على الأقل فى طريقة التناول، ومنهج البحث. ولكننا على الرغم من هذا نجد فى الكتاب روح أحمد أمين وثقافته الواسعة.

الهوامش

(١) مقدمة لأجزاء ضحى الإسلام لطه حسين.
(٢) تقديم لكتاب فجر الإسلام لأحمد أمين.
(٣) كتاب إسلاميات ص٦٠ سامح كريم.
(٤) دراسة بمجلة الرسالة للدكتور شوقى ضيف لكتاب ضحى الإسلام.
(٥) دراسة بمجلة العربى للدكتور محمد محمود الدش عن أحمد أمين.
(٦) مؤلفات أحمد أمين الإسلامية ـ محاضرات عن أحمد أمين للدكتور زكى المحاسنى ـ إسلاميات سامح كريم.
(٧) محاضرات أحمد أمين للدكتور زكى المحاسنى ـ طبعة معهد الدراسات العربية.
(٨) سورة البقرة ـ من الآية ٢٩.
(٩) سورة المؤمنون ـ الآية ٢١.